يوم كنت مديرًا للدعاية والإرشاد؟!

توفيق الحكيم

لم يكن فى توقعى المضى فى الكتابة فى مجلة « أكتوبر » . ولكن . . مادامت نقود فى يد أنيس منصور فأمرى إلى الله ! . . ولكن المشكلة فيما اكتب وأنا لا أريد اليوم الكتابة فى الغم والهم ؟ . . ولقد سبق أن قلت إن الكاتب منا يكتب بدوافع ثلاثة : الإصلاح ، أو الحب ، أو المال . . أما الإصلاح فغيرى أصلح منى . . وأما الحب فأين أجده ؟ . . وأما المال فهو عند أنيس منصور . . بقيت الكتابة .

وليس فى رأسى غير ذكريات الماضى ، فلنرجع إليها . . وأنه لتتراءى لى الآن صورة لى كدت أنسى ملامحها . . صورة الموظف الكاتب الذى اقترح يوما إنشاء وزارة للحياة الاجتماعية . فلم تمر شهور على اقتراحه حتى انشئت بالفعل هذه الوزارة باسم وزارة الشئون الاجتماعية . كان ذلك فى اواخر عام ١٩٣٩ ، فى الوقت الذى أعلنت فيه الحرب العالمية الثانية . وكان للزعيم الألمانى هتلر وزارة باسم وزارة الدعاية وزيرها جوبلز . فصدر المرسوم الملكى عندنا بأن تكون فى وزارة الشئون ادارة باسم إدارة الدعاية . وأخفت أنا بها ولا فخر . وخوفا من التشبه بجوبلز اضافوا كلمة « الارشاد » فصرت مدير إدارة الدعاية والارشاد . ولما كنا وقتئذ بلدا غير محارب سألت عن الدعاية عندى كيف تكون ؟ فقالوا لشئون المجتمع . . وكان وزيرى رجلا نحيفا من طراز « أبو لمعه » فكان يصدر كل يوم بيانا يعلن فيه أن وزارته فعلت وستفعل كذا وكذا وكيت وكيت ، والناس فى عجب لا يرون حولهم شيئا بدأ أو سيبدأ . . ونفد صبر الخوالد ، فإذا بصحيفة جريئة ارادت نقد الوزير فوضعت صورته فى برواز كبير وكتبت تحته عبارة تعبر عن الفشر والمعر . وظهرت الصحيفة ، وإذا الصورة التى فى البرواز ليست صورة الوزير ، بل صورتى أنا . فأسرعت محتجا أسأل الصحيفة فقالت إن الرقابة لم تسمح بنقد الوزير ، فقد كانت الرقابة قد وضعت بسبب قيام الحرب ، ولم يجدوا حلا إلا نشر صورتى بدلا من صورة الوزير . وكان هذا الوزير معروفا بأنه هلاس وزير نساء . فقلت لهم : وإذا ضبط الوزير فى بيت مشبوه ، فهل ستنشر صورتى أنا ؟ ! . .

قالوا : كل شىء جائز . . وجاء شهر رمضان المبارك ، وغادرت مكتبى بالوزارة فى الظهيرة ، وسرت فى الطريق وكان الحر شديدا ، فدخلت محل جروى بميدان سليمان باشا ، وطلبت كوب لبن زبادى بالثلج ، فما أن احضروه ووضعوه أمامى ، حتى دخل الوزير إياه ورآنى فأقبل نحوى يقول :

– ماشاء الله ! . . مدير دعايتى فاطر فى رمضان ؟ ! . .

فقلت له :

– لا والله ! . . بل انى منتظر مدفع الإفطار . .

قال :

– مدفع الإفطار فى المغرب ، ونحن الآن فى عز الظهر . تنتظر المغرب من الظهر ؟ ! وأمامك كوب اللبن المثلج ؟ ! . .

قلت :

– وهل انتظار المغرب فى أى وقت حرام ؟ ! . .

قال :

– الحرام هو البحلقه فى اللبن الزبادى . . إنه اشتهاء وغزل يا استاذ ! . .

– غزل ؟ ! . . فى اللبن الزبادى ؟ ! . .

قال :

– تصور أن أمامك الآن امرأة شهية وأنت تحلق فيها متغزلا فى رمضان . . حلال هذا أو حرام ؟ ! . .

قلت :

– الحرام هو فيما يؤكل . .

قال :

– وهل المرأة لا تؤكل ؟ ! . .

قلت :

– لا : اسمح لى بق يا معالى الوزير . أنا لا افهم فى هذا الموضوع . .

قال :

– أنت فاهم كويس . . أنت شيطان . . أنا عارفك . . شيطان رجيم . .

قلت له :

– ومعاليك كنت داخل هنا الظهر تعمل إيه ونحن فى رمضان ، ومحل جروى فيه أكل وشرب ؟ ! . .

قال :

– داخل فى شغل ، لمقابلة واحد . .

قلت :

– واحد ؟ ! . . رجل ؟ ! . .

قال :

– قصدك إيه ؟ . . أنا فاهم قصدك يا قليل الأدب ! . . وتركنى وانصرف عابسا . . ثم عاد والتفت نحوى ونظر نظرة ماجنة وغمز بعينه واختفى . .

فى اليوم التالى كنت فى مكتبى ، فطلبنى معاليه بالتليفون وقال لى : اسمع . . أنا مستعجل . ونازل حالا فى اجتماع بمجلس الوزراء . . و . . عندى هنا الآن موعد مع سيدة مهمة هى المركيزة دى سان بوان . . وأنت رجل عشت فى باريس وتعرف معاملة الخسان الباريزيات . فاستقبلها نيابة عنى بما يليق بمقامها ولطفها وخلقها وأنت سيد العارفين . . باى باى . .

فشكرت لمعاليه فضله ومكرماته ونفحاته . . ولبثت انتظر فى شوق مجىء المركيزة الحسناء . وأعدل فى هندامى . . إلى أن جاء الموعد . ودق الباب وفتح . ودخلت امرأة . والعياذ بالله . بل عجوز شمطاء حيزبون تتوكأ على عصا . وخرج من بين فكيها اسنانها كقحيح الأفعى كلام غير

بيكاسو .. كان يلفت النظر بزيه الغريب

احمد نجيب الهلالى .. الشهير بالسخرية والدهاء

جورج .. وزير الدعاية أيام هتلر

مفهوم .. فهمست لنفسي :

– عملتها يا معالى الوزير ! .. كان من الواجب أن أفهم نفحاتك ! .. لو كان فيها خير ماكان رماها الطير ! ..

ولكن وظيفتى كمدير دعاية كان فيها من المتاعب لون آخر .. فقد سقطت هذه الوزارة .. وأجريت فى البلاد انتخابات جديدة جاءت بالأغلبية الوفدية بنسبة كاسحة وألفت الوزارة برياسة مصطفى النحاس باشا .. ولست أدرى ما الذى حل بى .. فقد تغيرت أيضا نفسيتى .. فبعد الفلس مع وزير الفلس .. دخلت فى حالة من الجد هى النقيض للحالة السابقة .. فمرحلة المرح عندى تعقبها الكآبة .. ومرحلة الهزل تعقبها مرحلة الجد .. ولذلك أخشى نفسى .. وما فى داخلها من تغيرات الطقس .. ولا أعرف متى يردها ومتى حرها .. وكأنى فى حاجة داخلها إلى مصلحة أرصاد جوية .. وتحرك القلم فى يدى فكتبت مقالا بعنوان « الحوادث الثلاثة المزيفة » يفهم منه أن أحزابنا الثلاثة مزيفة .. ونشرت جريدة الأهرام هذا المقال فى صدر صحفاتها .. فهاج وماج حزب الأغلبية الوفدية .. وصاح النحاس باشا : هل نحن حزب مزيف ؟ .. نحن الذين خرجنا من الانتخابات الشعبية بنصر مؤزر .. واكتسحنا أحزاب الأقلية ! .. المزيفون هم أحزاب الأقلية .. فكيف نوضع نحن مع أولئك المزيفين ؟ ! والذى يكتب ذلك هو مدير دعاية الحكومة ؟ ! .

ورأى الوزراء الحاضرون ضرورة اتخاذ اجراء رادع ضد هذا الموظف .. وقال أحدهم :

– خصوصا وأن له سوابق ..

فصاحوا :

– سوابق ؟ !

فقال :

– نعم .. فى عهد وزارة محمد محمود باشا ..

وجعل يذكرهم بالمقال الذى سبق أن نشرته بعنوان : « أنا عدو المرأة والبرلمان الحاضر .. لأن طبيعة الاثنين واحدة وهى الثرثرة » ! .. وإذا كان لابد من دخان يخرج من تحت قبة فليكن دخان مصنع .. فهو انفع للبلاد ! ..

واجتمع مجلس الوزراء لاصدار قرار بطردى من الحكومة .. ولكن شقيق رئيس الحكومة وهو « حظى محمود » نشر مقالا ينقد فيه شقيقه رئيس حزب الأحرار الدستوريين الذى يريد طرد كاتب لرأيه وهو الذى دافع عن آراء طه حسين وعلى عبد الرازق وانتقد إجراء طردهما .. والفارق الوحيد أنهما كانا ينتميان لحزب الأحرار الدستوريين .. وانتهى الأمر بأن استبدلوا بالطرد خصم خمسة عشر يوما من مرتبى ..

وقال وزير آخر :

– وله سابقة أخرى فى عهد وزارة على ماهر باشا ..

فقالوا :

– ماذا فعل أيضا ؟ ..

فقال :

– نشر مقالا بعنوان « لا توجد زوجة صالحة فى مصر » وذكر أن خريجات المدارس الأجنبية مثل مدرسة « الدام دى سيون » لا يصلحن زوجات صالحات .. وكانت الملكة من خريجات هذه المدرسة فكانت كلما قابلت على ماهر باشا عند ذهابه إلى القصر صاحت فى وجهه تأمره بطرد هذا الكاتب الذى قيل لها أنه يشغل وظيفة مدير الدعاية ! .. ولكن عندما تقرر الطرد انبرى وزير قائلا لعل ماهر إن طردى سيجعل الأزهر يقف بجانبى لأنى لم أقصد غير الإصلاح .. فسكت عنى مرغما ..

وسأل أحد الوزراء الحاضرين :

– وما هو المطلوب منا الآن ؟ .. أهو السكوت عليه نحن أيضا ؟ ! ..

فرد وزير بعنف :

– مستحيل ! .. نسكت على مدير دعاية بهذا الشكل ؟ ! .. فهمونى .. لماذا لا يستطيع أحد أن يعاقبه ؟ ..

فقال له آخر :

– السبب بسيط .. لأنه لا ينتمى إلى حزب .. ولو كان يكتب بسند من حزبه لأمكن طرده عندما يتسلم الحكم الحزب المعارض لحزبه .. ولكنه كاتب يعبر عن رأيه الشخصى ..

وكان نجيب الهلالى باشا أحد الوزراء الحاضرين والمشهور بالسخرية والذكاء والدهاء ، يسمع كل ذلك فى صمت ، وأخيرا تكلم قائلا :

– عندى حل ..

فصاحوا كلهم :

– ما هو ؟

قال :

– نقله من وظيفة مدير الدعاية هذه إلى وظيفة أخرى لها نفس الدرجة ونفس المرتب ..

فوافقوا بالاجماع قائلين :

– عظيم جدا .. وبهذا لا يمكن أن يقال إنه عوقب بتخفيض فى الدرجة والمرتب .. مادام مربوط الوظيفة المنقول اليها لم يتغير .. فما هى هذه الوظيفة ؟ ..

فأجاب نجيب الهلالى باشا بكل هدوء وجدية :

– هى .. باشكاتب مستشفى المجاذيب بالخانكة !

ففجعك النحاس باشا والوزراء جميعا .. وما عت المسألة ..

ولم تقف إدارة الدعاية وما جرى فى فيها وما رأيت عند هذا الحد ، بل تعداه إلى الريف ناحية بلدنا .. فقد كنت يوم شغلت وظيفة وكيل نيابة المركز رجلا محترما يزور مكتبى أعيان البلد فيجدون على باب الحجاب والعساكر ، ويشاهدون المتهمين مجرورين والخفراء فى الحديد مسحوبين فيذهبون إلى القرية يقولون فى زهو وفخار : « البك بتاعنا حاجة كبيرة قوى فى الحكومة .. ذلك أن الفلاح لطول ظلمه من الحكام أصبح يقول « الى ما يقدرش يجيبنى ما لوش عندى اعتبار » ! ..

فلما زارنى أحد هؤلاء الفلاحين من ريفنا فى مكتبى وأنا مدير الدعاية ، وكان من اختصاصى الإشراف على الإذاعة ، لم يجد عندى عساكر ولا محابيس ، بل وجد مطربا يغنى على العود ومعه سنيد على الرق .. فقد كان هذا المطرب قد جاءنى متظلما من رفض الإذاعة إدراجه بين مطربيها ، وأصر على أن اسمعه بنفسى لأتأكد من ظلم الإذاعة .. وجعل المطرب يطلق صوته المجلجل فى حجرتى وينهايل والرقاق يسنده ويتابعه وعينه تلمع بالفن الذى يجلى ، والفلاح الزائر يشاهد ذلك ويتأسف ، ولم يتحمل المزيد فاستأذن وخرج راجعا إلى ريفه يقول : « يا خسارة البك بتاعنا ! .. بقى اليوم فى شغلة تقل القيمة وتقصر الرقبة » ! ..

وبعد .. هل ترانى اكتسبت خبرة من عملى بالدعاية ؟ ! .. طبعا .. فإن كل عمل تمارسه يجب أن يكسبنا الخبرة فى شىء .. وقد أدركت بتجربتى مع الوزير الفشار أن الذى يقتل الدعاية حقا هو الفشر .. وقد قيل فى أمثالنا الشعبية : « كيف عرفت أنها كذبة قال من كبرها » .. والدعاية المقنعة هى التى تستند إلى حقيقة .. فالجريدة التى تعلن عن سعة انتشارها ببيان من محاسب قانونى بأرقام التوزيع تكون دعايتها سليمة .. أما التى تكتفى بالكلام بأنها أوسع الجرائد انتشارا فإن دعايتها عبيطة .. والدعاية للأعمال لابد فيها من الضبط والدقة .. أما الدعاية للذات فلا بأس فيها من التسامح والمجاملة ..

ومن العظماء من كانت له فى ذلك نوادر .. فقد كان برناردشو يرتاد أماكن احتشاد الجماهير مثل سباق الخيل متعمدا أن يلبس سترة غريبة الألوان تلفت الأنظار ليقول الناس : انظروا هذا برنارد شو .. كما كان بيكاسو يلفت النظر بغرابة زيه ومظهره وهو يظهر فى الاجتماعات والدعوات .. أما الفيلسوف جان جاك روسو فقد كان ، على حد قول كارليل فى كتابه عن العظماء ، يذهب إلى المسارح ويطل من مقصورته على الجمهور فإذا التفت إليه الجمهور وعرفه انشرح صدره ، أما إذا لم يلتفت إليه أحد فإنه يصاب بالضيق .. أما أغرب دعاية فهى التى قام بها تاجر يهودى ذات يوم عندما أعلن فى الصحف عن وفاة شقيقه وشريكه « شالوم كوهين » ونص فى اعلان النعى : أن العزاء برقيا يحل تجارته المانيفاتورة بشارع الموسكى وقد وردت إليه أجود أنواع الحرير والكستور والبفتة بأسعار مهاودة ومن يحضر يجد ما يسره .. وكنت أود أن أقلد كوهين واختم مقالى هذا بالاعلان عن كتاب لى لم يزل فى طبعته الأولى منذ سنوات لا ينفد ولا يتحرك مع أنه والله يستحق الرواج لأنه من تأليف الإمام القرطبى ، وما أنا إلا المنوط عنه قبض الأثمان وسبحان موزع الأرزاق